

الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[التيشارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . . .]

للاستاذ محمود الخفيف

- ٢٢ -

البرسيترينز والصرمة الثانية :

قلت قيمة المرأة في نظر ملتن ، وانحط مستوى الطبيعة البشرية عما قدر لها من قبل في خياله وفكره ، وساءه أن يعرض معاصروه عن آرائه في الطلاق ، وما جاهد جهاده إلا تخيرهم ؟ وآلمه وكدره أن يخاصمه بعض الناس وأن يناصبوه العداء ؟ وجاءت مخالفة البرسيترينز إياه بعد ذلك ، فكانت هي الطامة الكبرى .

قدر ملتن أن سوف ينظر إليه أهل عصره لما أذاع فيهم من رأى في الطلاق نظرهم إلى مصلح عظيم ، وكان يرى في تطلع ذلك العصر إلى الإصلاح وشدة ميله إلى تغيير كل شيء وعلى الأخص في السياسة والدين حافظا يحفظه ويزيده استبشارا وأملا ، كما كان يدفعه إلى الجد ويوحى إلى نفسه أنه يعمل عمل أفاض المصلحين ، شدة ثقته في نفسه وكثرة الذهاب بها ويقينه من تمكنه وضلوعته واتساع أفقه ، وما يرى من إكبار أصحابه إياه ؛ ومن كان هذا شأنه كان خليقا أن يستشعر حرارة الخيبة مضاعفة وأن يبلغ من نفسه الألم مبلغا عظيما إذا لقيه الناس لا بمجافاته وإعراضهم عنه فحسب ، بل بمداخلة آرائه كذلك ومجاهرتهم بالسوء من القول ؛ وكان كذلك خليقا أن يفضب وأن يرد عمل أهل عصره إلى القباء والجهل والجمود ، وإنه ليوقن أن ما بينهم وبينه من فرق في الثقافة والمرقة كمثل ما بين الظلمات والنور . ولقد أقصع عن مبلغ ما كان يضطرم في نفسه من حنق على قومه ، وعن مبلغ ازدراءه لإمام وسخره منهم في مقطوعتين نظمها

سنة ١٦٤٥ ؛ ففي الأولى راح يتهم ويسخر من جهل خصومه قائلا إن كتابا اسمه « تيرا كوردون » أذيع في الناس من وقت قريب فبلغ من جهل بعضهم أنهم نظروا حيارى إلى عنوانه قائلين ما هذه الكلمة التي اتخذت له عنوانا ، وقرأ بعضهم فأخطأ النطق وعجز عن الهجاء ؛ ثم يعجب الشاعر من هؤلاء ويستعرض بعض أسماء ألقوها ويتساءل قائلا : لم يكون عنوان كتابه أعسر منها في أفواه هؤلاء السادة ، وقد ألفت أفواههم المسير الجاني من الكلام ، ثم يذكر أول أستاذ للغة الأغريرية في كبردج في القرن السادس عشر ، ومعلم الملك ادرارد السادس وهو سير جون تشيك ، فيناجي روحه قائلا : « إيه يا روح سير جون تشيك ! إن عصرك لم ينفر من المعرفة إذ كنت تعلم كبردج وتعلم الملك الأغريرية كما ينفر من المسلم عصرنا الذي يعيش فيه » .

وفي المقطوعة الثانية كان ملتن أشد حنقا وأوجع هجوا منه في سابقتها وحسبك منه قوله : « إنما جهدت أن أحمل أهل هذا العصر على أن يتخلصوا من قيودهم ، وذلك بالرجوع إلى قواعد الحرية القديمة المعروفة^(١) ، وبينما أعمل على إذاحة طغيان جوقة من اليوم والحير والقردة والسكلاب ، فقموا بي كما فعل أولئك القرويون الذين أحيوا إلى ضفادع^(٢) جزاء بما أجرموا إذ هوشوا على نسل لاتونا التوأمين^(٣) اللذين صار لهما بعد ذلك ملك الشمس والقمر ؛ وذلك الذي نالني إنما هو كل ما يتاله الرجل من جزاء إذ يلقى باللاتي إلى فصائل من العجاوات تجهد في غيابها المجرى من كل حس في طلب الحرية ، حتى إذا جاءها الحق الذي يكسبها الحرية تارت ضده وتآلبت عليه ؛ وهؤلاء إنما يمتنون القوضى إذ يهتفون بالحرية ؛ فأن من يمشق الحرية ينبغي أولا أن يكون خيرا عاقلا ؛ وإنما نستطيع أن نرى إلى أي مدى يبعد هؤلاء عن الهدف

(١) يقصد ملتن ما جاء في التوراة من تواتر عن الطلاق ، وما أخذت به الكنيسة المسيحية في أيامها الأولى
(٢) جاء في الميثولوجيا أن جونو أرغم لاتونا عشيقه جويتر على الفرار فظلت تبحث لنفسها عن مأوى ، فبينما كانت تصرب من بحيرة في ليشيا إذ صر بها بعض القرويين فأذوها وأهانوها وعكروا الماء بأيديهم وأرجلهم فضاقهم جويتر بأن أحاطهم لك ضفادع .
(٣) ولدت لاتونا بعد ذلك أبولو للشمس وديانا إلهة القمر ؛ ولم يفرق ملتن هنا بين لاتونا ونسلها .

بإحلال البرسبتيرية محل الأسقفية نهائياً ، وتغيير كتاب الصلاة المتبع ، ووافق البرلمان على ذلك ، وكانت أغلبية أعضائه يومئذ من البيوريتانز المؤيدين للبرسبتيرية ، ولكن جماعة من المستقلين خالفوا أعضاء مجمع وستمنستر في بعض الأمور إذ أحسوا فيها تزمنا وشدة وطلبوا بشيء من الاعتدال ، ونشر خمسة منهم كتاباً يحتكمون فيه لا إلى البرلمان وحده بل إلى الرأي العام في المملكة كلها ؛ فلما خرج ملتن على البرسبتيرينز سنة ١٦٤٤ ، وأخذ يظن فيهم وهو الذي عرف بانتصاره للحرية أيد ذلك قضية المحتلين ، وأحاط البرسبتيرينز بشبهة التعصب وعبادة حرية الرأي .

وقد بدأ الخلاف بين ملتن والبرسبتيرينز كما قدمنا في أواخر سنة ١٦٤٤ وذلك بعد أن ذاع كتيبه « قانون الطلاق ونظامه » وبعد أن نشر مقاله الذي جعل عنوانه « رأى مارتن بوسر في الطلاق » ، فقد طالبوا بمصادرة كتيبه لأنه طبعه بنير تصريح مخالفنا بذلك قانون الطبع الذي هو من صنع أيديهم والذي أرادوا به حماية نظامهم الكنسي ، قرأى ملتن إذ ذلك أن أصدقاءه يعملون على خنق الحرية كما يعمل الأساقفة ، ومن ثم دب بينه وبينهم الخلاف ؟ وهل يظل صامتا حيال سيحتهم ذلك ما لا تطبقه نفسه وما لا تنظامن له كبرياؤه ؟ وذلك ما لا يتفق مع حبه للحرية حيا درج معه منذ نشأته ، وإذا فلا بد من رد ولا يد من سيحة يكربها عليهم ويدفع بها عن الحرية ؛ ولكن البحث في الطلاق يملك عليه وقته وفكره فليدعه إلى حين ، وليجعل همه إلى كتيب يناصر به حرية الرأي ، ويهاجم فيه الرقابة على هذه الحرية هجوما عنيفا .

وبفرغ ملتن من كتيبه هذا وينشره في نوفمبر سنة ١٦٤٤ أي قبل نشر كتيبه « ترا كوردون » بنحو أربعة أشهر ويعرف هذا الكتيب باسم « إيروپاجيتيكا » ، وفيه يحتكم إلى البرلمان وإلى كل ذي رأى حر .

وبلغ من جرأة ملتن وكبرياء نفسه وتحمسه للحرية أنه نشر هذا الكتيب كذلك بنير إذن ، فكان عمله هذا تحديا للبرسبتيرينز من ناحيتين ، فهو يهمل قانون الطبع الذي وضعوه وقرروه ، وهو في الوقت نفسه ينكر بكتيبه هذا الرقابة على الكتب كما تتمثل في ذلك القانون ويراها قيادا لحرية الرأي ففنده أنه يجب القضاء على هذه الرقابة « حتى لا يكون الحكم على ما يجوز طبعه وما لا يجوز لفئة قليلة أكثر من لا يصون في

على الرغم مما ينفق من مال وما يبذل من دم^(١) . ولئن بلغ به الحنق هذا المبلغ على أهل عصره بوجه عام ، فقد كان حنقه على البرسبتيرينز أشد من ذلك درجات ، وكان أسفه لما كان من موقفهم حياله أعظم وأقوى ، فن أوهى الأمور وأقبحها أن تأتي الخيبة من حيث يلمس الرجاء ، وأن تقع البلوى على يد من يطلب عنده العزاء ...

آلم ملتن وزاده غما على غم أن يعلم أن البرسبتيرينز على منصاتهم وفي كتاباتهم يصفونه بالطيش ، ويقررون أنه يذيع مبادئ إباحية ، وأنه بما نشر إنما يمثل الأحماد والفسوق عن أسرار الله أم تمثيل ؛ ولكن روحه القوية لم تهن وإن أصابها الحزن ، ونفسه الأبية لم تذلل وإن اجتمعت عليه المحن ، وأقبل يهاجم البرسبتيرينز كما هاجم التساوسة من قبل ، يأبى إلا أن يدافع أبدا عن الحرية في أي صورة من صورها ، والمجال اليوم مجال حرية الرأي فإحرأه أن يناصر حرية الرأي .

اعتزم ملتن أن يبيد النظر فيما كان يرى من رأى في الإصلاح الديني ، وأحس في نفسه الميل إلى مقاومة تشدد البيوريتانز وتزمتهم فيما يتصل بالدين وحياة المجتمع ، ذلك التزم الذي بلغ منتهاه عند جماعة البرسبتيرينز ، والذي جعل ملتن يؤمن اليوم إن هؤلاء ليسوا أقل تمصبا ولا جودا من التساوسة ، وليسوا أوسع منهم أفقا ولا أخف حقا .

ولم يكن غضب البرسبتيرينز على ملتن بسبب ما جاء به من آراء حول الطلاق فحسب ، وإنما أغضبهم كذلك جرأته في الدعوة إلى الاعتماد على العقل في تفسير الأناجيل ، وعدم التقيد بأقوال من سبق من رجال الكنيسة في تفسيره وتأويله ما لم يتمش ذلك مع العقول ووافق طبائع الأشياء .

فالمركة اليوم إذا معركة الرأي وحرية ، والعقل وكرامته ، وشخصية الفرد وكيانها ، وحسب ملتن من الفخر أن يكون في ذلك طلعة بين أهل عصره كما كان طلعة في حربه على التساوسة وفي آرائه حول الطلاق ...

وحدث بين جماعات البيوريتانز خلاف سنة ١٦٤٣ جعل لخروج ملتن على البرسبتيرينز صدى أشد وأبعد مما كان يقدر له لو لم يقع هذا الخلاف ، وبيان ذلك أن مجما من البيوريتانز انمقد في وستمنستر في تلك السنة للنظر في النظام الذي تخضع له الكنيسة في إنجلترا ، أي طريقة إدارتها ، وقد قضى هذا المجمع

(١) يشير من إلى الحرب الأهلية الدائرة الرمن يومئذ .

العلماء إذ أن كفايتهم عادة شائمة » .

وكان الكتيب في صورة خطبة مكتوبة موجهة إلى البرلمان وقد جعل ملتن شعاره عبارة مقتبسة من كلام بوربيد أثبتتها بنصها الأفريقي ؛ وهو بمد خطبة فليسر فيه درس وفق منهج معين أو تمحيص لما يمرض له من آراء ، أو تقص للأفكار التي يؤيد بها رأيا أو يخالف رأيا ؛ ولكنه على الرغم من ذلك أو لعله بسبب ذلك كان من أحسن ما نشر ملتن من هاتيك الكتيبات ، فهو فيض نفس نبيلة حرة ، تفهق صفحاته بكلام من خير ما كتب في الحرية فصاحة لفظ وبلاغة عبارة ورقة شعور ونبل حس وشجاعة رأى وحرية قول ...

وكان الأمل والحماسة ملء كتيبه هذا ، فلئن خاب أمله في البرستيريئز فليسوا هم كل شيء ، بل إنهم وقد نصبوا أنفسهم أعداء للحرية لم يعد لهم من الأمر شيء ، وإن إنجلترا لتتجه نحو أمل جديد تراه في شخص كرومول وهو زعيم المستقلين وخطبه الظفر كما تنبأ حوادث الحرب ، وإن المستقلين جميعا وطلاب الحرية ليلتفون حوله ، فهو في عهده أمل إنجلترا ونصير الحرية وبطلها ؛ ذلك ما كان يتحدث به ملتن إلى نفسه وذلك ثابت في كتيبه الرجاء . وزاد الأمل تمكنا من نفسه أنه وقد استمدى عليه الرقباء في البرلمان لم يمسه شيء مما أرادوا به من سوء ، إذ لم يرض مجلس اللوردات أن يشايح البرستيريئز فيما يذهبون إليه من رغبة في التضييق على حرية النشر ؛ واعتبط ملتن أيما اعتباط وارتاح أيما ارتياح إلى هذه المعاملة التي زادت ثقة في نفسه ، وبقينا من ملتن مكانته في قومه .

ويحس المرء لذة قوية إذ يقرأ هذا الكتيب ، فليس فيه مثل ما في كتيباته التي أرسلها على القساوسة من غل الخصومة وعنق الهجاء ، وإنما يسوده الهدوء وحنن السياق ؛ وهو فضلا عن ذلك قريب إلى المقلبات الحديثة بما حواه من أفكار حول حرية الرأي وحرية النشر ، وحبك منه بعض ما كتبه ملتن من قيمة الكتب مثل قوله : « إن من يقتل كتابا طيبا كمن يقتل رجلا ؛ بل إن من يقتل رجلا إنما يقتل مخلوقا مائلا ، في حين أن من يقضى على كتاب قيم فقد قتل المثل نفسه ؛ وإن كثيرا من الناس يعيشون مائة على هذه الأرض ، أما الكتاب الجيد فهو دم الحياة الفاني ، دم كآبته ، ذلك الروح البقري ، وقد جنط ذلك الدم واخترن ككثير من لبيق ذخر الحياة بعد حياة » .

ويقع المرء فيه على كثير من العبارات اللطيفة الجميلة جمعت

بين الأيجاز والشمول كقوله : « يظل الأحمق أحمق أوفى كتابا جيدا أو لم يؤت كتابا قط » . وكقوله : « يجد المظهرزون كل شيء مطهرا ، وليس ذلك في طعامهم وشرابهم فحسب ، ولكن في كل صنوف المعرفة الطيب منها رائحيث فلا يمكن أن تفسد المعرفة كما لا يمكن تبعا لذلك أن يفسد الكتب ما دامت الإرادة والضمير لا يتطرق إليهما الفساد » .

ويأتي ملتن بطائفة من الآراء ثم عما كان يجول في خاطره بعد القطيعة بينه وبين البرستيريئز ، فهو ينكر اليوم عقيدة القدر المحتوم التي اعتنقها البيوريتانز عن كلثن وبأخذ بعقيدة الإرادة الحرة التي نادى بها أرمينيتس ويصف هذا الأخير بقوله « أرمينيس الواضح البين » وينفر ملتن من تزم البيوريتانز وتشددهم في كل شيء ، وبعد أن كان من قبل وهو الشاعر الذي يمشق الجمال ويحمن الحياة إحساسا قويا في حيرة بين ما تقتضيه الطبيعية وما تقوم به الروح ، تراه اليوم يعلن أن في وسع المرء أن يجمع بين الإثنين في غير حرج ، وقد كان ما تقوم به الروح عنده قبل ذلك في المحل الأول ، تجد ذلك وانحأني قوله « لماذا خلق الله المواطنين وبشها فينا ، ولماذا خلق مسرات الحياة وأحاطنا بها ، وليس معنى ذلك أنه يبيح الاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده في غير قيد ، ولكنه يريد ألا يتشدد فيرى في كل زينة وفي كل متعة ما يوجب الروح كما يفعل الفالون من البرستيريئز ، ولقد باتوا عنده كالقساوسة حماقة وضيق عقل وسوء تمصب كما يتضح في قوله إذ يشير إلى خفتهم حرية الرأي « إنما تخرج أفانين القساوسة براعها من جديد » .

وبعد ملتن في الواقع بعد اختلافه مع البرستيريئز من المستقلين ، بل لقد كان أكثر من مستقل ، فسوف لا يؤيد بعد اليوم نظاما كنسيا ما أو يأخذ رأيا من الآراء لا يتحول عنه أولا يقلب النظر فيه ؛ أو يقضى كنيسة من الكنائس غشيانا رتيا ، وإنما تسيطر عليه روح دينية توحى إليه قواه وطهره . وإن كان مستقل الرأي لا يقبل شيئا لا يطمئن إليه عقله ولا يتقيد بمذهب معين ؛ على أنه وإن لم يتقيد بمذهب لا ينسى كراهته للقساوسة من أشياح روما والكاثوليكية بوجه عام ، كما لا ينسى غضبه على البرستيريئز ولا اتهامه إياهم بأنهم أعداء الحرية ، وأنهم لذلك كالقساوسة عقبه في سبيل الإصلاح الحق ، وأنهم يبالغون في تزمهم وتشددهم بمبالغة تقضى حتما إلى النفور من مذهبهم .

الكتيب

(يتبع)